الفصل الأول

معنى شخصية الأمة

ومعالم هذه الشخصية في الإسلام

وقفة مع كلمة «أدب»

obeikandl.com

١- شخصية الأمة:

الشخصية مصطلح سائد مشتق من الشخص، والشخص هو كل جسم له ارتفاع وظهور، والمراد به إثبات الذات فاستعير لها لفظ الشخص، والعرب تسمي الرجل الجسيم العظيمَ الشَّخْص «شخيصاً»، والشَّخيص الرجل العظيم الخَلْق والسيِّد في قومه، وشَخُص شَخاصةً بَدُنَ وضَخُم، وتشخيص الأمراض تعيينها وتمييزها، وشَخَص الرجل شخوصاً إذا ارتفع والشخوص ضدَّ الهبوط، وتقول العرب: فرسٌ شاخص العظام: مُشْرِفُها[1].

فالشخصية إذنْ فيها معنى التميُّز والارتفاع والظهور، فهي بكل اشتقاقاتها اللغوية تدلُّ على ذلك، وشخصية الأمة تتكون من القيم والمبادئ التي تميّزها وترفعها، ولا يكون ما تنتجه الأمة من فكر وأدب وثقافة نافعاً لها إلا إذا كان منسجماً مع شخصيتها، بانياً لهذه الشخصية مدافعاً عنها، محافظاً على معالمها، ولشخصية الأمة الإسلامية ـ انطلاقاً من هذه المعاني ـ معالمُ تميزها عن سواها.

(١) انظر لسان العرب (٤٥/٧) مادة شخص، دار صادر، بيروت، وانظر المنجد في اللغة والأعلام ص ٣٧٧، مادة شخص، دار المشرق بيروت، الطبعة: ٢٧، ١٩٨٤م.

obeikandl.com

يقول الله تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾[1].

يشير ابن كثير ـ رحمه الله ـ إلى أن الضحاك روى عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ أنّ صبغة الله هي دين الله[2].

ويقول القرطبي ـ رحمه الله ـ: فسمِّي الدين صبغة استعارةً ومجازًا حيث تظهر أعماله وسمته على المتدين كما يظهر أثر الصبغ في الثوب، ثم يشير بعد ذلك إلى ما روي عن قتادة أنه قال: إنّ اليهود تصبغ أبناءهم وإن النصارى تصبغ أبناءهم وإن صبغة الله الإسلام[3].

ويؤكد ابن كثير أن صبغة الله مثل «فطرة الله» ألا وهي فطرة الإسلام[4]، ومثل ذلك يرد عند الطبري في تفسيره[5].

من خلال هذا المعنى الواضح نستطيع أن نحدِّد شخصية الأمة الإسلامية بقولنا: «هي كيانها المستقل المبني على إيمان

(١) سورة البقرة: الآيتان: ١٣٨، ١٣٩.
(٢) تفسير القرآن العظيم (١٨٨/١)، دار المعرفة، بيروت ١٣٨٨هـ.
(٣) جامع البيان في تفسير القرآن (٤٤٤/١)، دار المعرفة ط ٣، تاريخ ١٣٩٨هـ.
(٤) تفسير ابن كثير (١٨٨/١). (٥) تفسير الطبري (٤٤/١).

بالقيم والمبادئ المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وسيرة السلف الصالح»، وهي بهذا المعنى شخصية مستقلة تقوم على ثلاث حقائق مهمة لا حياة للأمة الإسلامية ولا شخصية لها بدونها ألا وهي: حقيقة الألوهية، وحقيقة العبودية لله، والصلة بين العبد وربه، وهذا ما تتحقق به الفطرة السليمة التي قال عنها رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا يُولد على الفطرة» ثم يقول: اقرؤوا : ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾[1].

ولذلك كانت «شخصية الأمة الإسلامية» واضحة المعالم تستمد وضوحها من ضوح الإسلام الذي قال عنه الرسول عليه الصلاة والسلام فيما رواه مالك بن أنس: «تركتُ فيكم أمرين لن تضلُّوا ما تمسكتم بهما، كتابَ الله وسنةَ رسوله»[2].

إن للأمة الإسلامية شخصية ذات سمات خاصة بها دون سائر الأمم، وقد عبر عنها القرآن الكريم في قوله تعالى:

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠، والحديث رواه مسلم والبخاري بزيادة، وانظر جامع الأصول لابن الأثير الجزري (٢٦٨/١)، طبعة ١٣٩٨هـ، وقد أشار ابن الأثير إلى أن المقصود بالفطرة في أشهر الأقوال «الإسلام»، وانظر كتاب «دروس تربوية نبوية» للأستاذ صالح بن علي الشهري، ص ١٣، الناشر دار الضياء بالرياض، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

(٢) جامع الأصول (٢٧٧/١).

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾[1].

يروي ابن كثير في تفسيره عن الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ، أن رجلاً قام إلى النبي ﷺ وهو على المنبر فقال: يا رسول الله، أيُّ الناس خير؟ قال: خير الناس أقراهم، وأتقاهم لله، وآمرهم بالمعروف، وأنهاهم عن المنكر، وأوصلهم للرحم. ويعلق على ذلك ابن كثير بقوله: والصحيح أن هذه الآية عامة في جميع الأمة كل قرن بحسبه[2].

وأقول: إنَّ شخصية هذه الأمة ناتجة من إيمانها بالله تعالى، وأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر، وهذه الأمور تنبثق من حقائق العبودية لله والاتصال به، وبهذا تكون شخصية الأمة مكتملةً.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.
(٢) تفسير ابن كثير (٣٩١/١).

obeikandl.com

وحرصاً على هذه الشخصية حث الإسلام أفراد المسلمين وجماعتهم على الالتزام بمبادئ هذا الدين والتخلص من سيطرة الأهواء والشهوات والشبهات.

يروي أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ثلاث من كنَّ فيه وجد بهن طعم الإيمان: من كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، ومن أحبَّ عبدًا لا يحبه إلا لله، ومن يكره أن يعود في الكفر ـ بعد إذ أنقذه الله منه ـ كما يكره أن يُلقى في النار» وفي رواية أخرى : «من كان أنْ يُلقى في النار أحبَّ إليه من أن يرجع يهودياً أو نصرانياً»[1].

وفي هذا الحديث إشارة واضحة إلى أهمية الحفاظ على معالم الشخصية الإسلامية حتى يكون الاصطلاء بالنار أهون عند المسلم من الانسلاخ من مقوّمات شخصيته الإسلامية.

والأحاديث والأخبار الدالة على ذلك كثيرة وليس هذا مكان طرحها، وإنما أردت أن أوضِّح للقارئ الكريم مفهوم شخصية الأمة الإسلامية التي أمرنا بالمحافظة عليها، في أعمالنا وأقوالنا، والتي يعدُّ الأدب بأساليبه المتعددة وسيلة من وسائل الحفاظ عليها إذا كان أدباً مستقيماً في منهجه، وأسلوبه.

(١) صحيح البخاري، باب حلاوة الإيمان (٥٦/١ ـ ٥٨).

obeikandl.com

٢ـ علاقة الأدب بشخصية الأمة:

قلنا عن شخصية الأمة إنها: «كيانها المستقل المبني على الإيمان بالقيم والمبادئ المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومواقف السلف الصالح».

فالشخصية قائمة على «الإيمان»، والإيمان تصديق بالجنان وعمل بالأركان، كما أن «الإيمان الصادق الراسخ في القلب لابد وأن يوجه السلوك ويحرك العواطف»[١].

فالإيمان ملتصق بالقلب، حيث يتمكن منه، ويصد عنه كل ريبة وشك، قال الله تعالى: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[٢]، يقول ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «وقد استفيد من هذه الآية الكريمة أنَّ الإيمان أخصُّ من الإسلام كما هو مذهب أهل السنة والجماعة»[٣]، وخصوصية الإيمان التي أشارت إليها الآية علامة على اتصاله بالقلب وتعلُّقه به، والقلب هو قائد الجسد وموجِّهه «إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد

(١) عبد الرحمن حبنكة الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها، ص ٩٣، الطبعة الثانية، دار القلم.
(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٤.
(٣) تفسير ابن كثير (٤/٢٢٠).

الجسد كله ألا وهي القلب»[1]، ومن هذا المنطلق يبدو التلاحم القوي بين الإيمان والقلب وعمل الجوارح وهو ما يؤكده قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** ﴾[2]، فالآية هنا صريحة في بيان حقيقة الإيمان الكامل وهو التصديق المحض الذي لا يخالطه شك ولا ارتياب، وهو الذي يدفع صاحبه إلى أن يبذل نفسه وماله في سبيل الله، إنها اللُّحمة الواحدة التي لا تنفصم بين ظاهر المسلم وباطنه، ومن هذه اللُّحمة تتكون شخصية الأمة الإسلامية المميَّزة.

أما الأدب فإنه «التعبير عن التجارب الشعورية تعبيرًا موحياً»، والتجارب الشعورية تنتج من تفاعل قلب الأديب مع ما يدور حوله من مواقف وأحداث.

وإذا كانت شخصية الأمة الإسلامية قائمة على إيمانها بالله المتعلق بالقلب كما مر معنا، وكان الأدب قائماً على التجارب الشعورية المتعلِّقة بالقلب، فإن ذلك يدلنا على العلاقة الوطيدة القائمة بينهما، وهذا ما يدعو إلى الاهتمام بالأدب

---

(١)

(٢) سورة الحجرات، الآية : ١٥.

obeikandl.com

دراسة وتقويماً وتوجيهاً؛ لأنه ـ في الوقت نفسه ـ اهتمام بشخصية الأمة؛ وذلك لأن الأدب وثيق الصلة بوجدان الأمة ومشاعرها، وهذه الصلة هي التي جعلت دوره خطيرًا في حياة الأمم مما دعى كل أمة إلى العناية به تسجيلاً ودراسةً ونقدًا.

*****

٣ ـ وقفة مع كلمة أدب:

لم تكن المسافات التي قطعتها كلمة «أدب» عبر دروب الثقافة العربية قصيرة ولا ميسورة، بل كانت شاقَّة مضنية، ولو قُدِّر لهذه الكلمة أن تكتب مذكّراتها الشخصية وسيرتها الذاتية لأنتجت لنا مجلَّدات ضخمة مليئة بالأخبار والمواقف المثيرة.

لقد تنقَّلت هذه الكلمة من معنى إلى آخر، وعاشت ـ في هذا التنقُّل ـ حياة السعة والرَّخاء وحياة الشدّة والضيق... فطالما اتسعت دائرة معانيها فشملت معاني الثقافة بكل ما فيها من شمولية وتعميم، ولطالما ضاقت معانيها فأصبحت تدلُّ على شيء محدَّد يدور في إطار محدَّد، وإن معاجم اللغة، وكتب الأدب وتاريخه تحمل من أخبار رحلة هذه الكلمة ما يؤكد هذا الذي أشرنا إليه.

obeikandl.com

فها هو ذا الفيروز أبادي يورد كلمة الأدب ويقول: محركةً الظَّرْفُ وحسن التناول، أدُبَ كحسُنَ أدباً، فهو أديب، الجمع أدَباء علَّمه فتأدَّب واستأدب، والأُدْبَةُ بالضم والمأدُبة والمأدَبة طعامٌ صنُع لدعوة أو عرس، وأدب البلادَ إيداباً ملأها عدلاً ... وأدَبُ البحر كثرةُ مائه[1].

وهذا ابن خلدون يعطينا كلمة الأدب محمَّلة بمعاني أخرى غير التي ذكرها صاحب القاموس، فيقول: «هذا العلم لا موضوع له يُنظَر في إثبات عوارضه أو نفيها، وإنَّما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته وهي الإجادة في فنّي المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم.. ثم إنهم إذا أرادوا حدَّ هذا الفن قالوا: الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها، والأخذ من كل فن بطرف»[2].

أما إبراهيم اليازجي فيورد وصفاً مسجوعاً طويلاً لمعاني كلمة الأدب ويفيد أنها تعني سعة الاطلاع والحفظ من المنظوم والمنثور ومعرفة أخبار العرب وأيامها ولغتها[3].

(١) القاموس المحيط (٣٦/١)، باب الباء فصل الهمزة.
(٢) مقدمة ابن خلدون، ص ٥٥٣، دار القلم، ط ١، ١٩٧٨م.
(٣) نجعة الرائد وشرعة الوارد (٦/٢)، مجمع المعارف الإسلامية، باكستان.

obeikandl.com

أما الجوهري فيقول: الأدب أدب النفس والدرس... ويشير إلى المعنى الذي ذكره القاموس، ثم يضيف مجدِّدا الصحاح كلاماً آخر إضافة إلى كلام الجوهري فيقولان: «يطلق الأدب بوجه عام على جملة المعارف الإنسانية، وبوجه خاص على الكلام الذي يعبر عن الأفكار والمشاعر والتجارب الإنسانية في قالب فني يعجب ويؤثِّر، ويسمَّى أدباً إنشائياً ويقابل الأدب الوضعي وهو أحد فروع الدراسات التي تدور حول الكلام واتجاهاته ونواحي الجودة فيه، والأدب الإنساني قسمان: شعر ونثر»[1].

ولن نستطيع أن نتتبَّع مسيرة هذه الكلمة بالتفصيل فليس هذا من صلب عملنا هنا، ولكننا أوردنا ما أوردناه آنفاً لنقف على هذا المعنى الأخير الذي ورد في الصِّحاح، وهو المعنى الذي وقفت عنده كلمة «الأدب» في عصوره المتأخرة، حتى إذا سمع أحدُنا كلمة «أدب» انصرف ذهنه إلى الإبداعات الأدبية في مجالي الشعر والنثر، وإذا سمع كلمة «النقد الأدبي» انصرف ذهنه إلى الدراسات النقدية التي تتخذ من الإبداعات

(٣) الصحاح، ص ١٠، تجديد صحاح الجوهر، إعداد وتصنيف نديم وأسامة مرعشلي، الناشر دار الحضارة، ط ١، ١٩٧٥م.
ومن أراد الاستزادة من معرفة رحلة «الأدب» فليراجع تاريخ آداب العرب لمصطفى صادق الرافعي، الجزء الأول، ص ٣١، الناشر دار الكتاب العربي ١٣٩٤هـ.

obeikandi.com

الأدبية مادة لها، وبهذا نحدِّد معنى الكلمة التي وضعناها عنواناً لهذه الدراسة.

فالأدب ـ هنا ـ هو ما ينتجه الأديب شاعراً كان أم ناثرًا من نصوص أدبية يعبر بها عن تجاربه الشعورية، أي أنه ذلك الضوء الذي ينتج من ذلك التفاعل القوي «الاحتراق الداخلي» في نفس الأديب، وهو ما أردنا أن نوضحه في هذه الدراسة المختصرة، ومدى علاقته بشخصية الأمة؛ ذلك لأن الأدب تعبيرٌ عن واقع الحياة في نفس الأديب، وتصوير لحقيقة رؤيته للكون والحياة والإنسان، وبقدر عمق هذه الرؤية عند الأديب تكون مقدرته على التأثير في مجتمعه وأمته، سلباً وإيجاباً.

والأديب عضو في مجتمع، وفرد من أمة، يتفاعل ويعطي، ويملك من جوانب الإبداع الأدبي ما يجعل دوره في حياة أمته مهماً وخطيرًا، ونظرًا لهذا التلاحم بين الأديب وأدبه من جانب، وبينه وبين مجتمعه وأمته من جانب آخر، نشأت تلك العلاقة القوية بين الأدب وشخصية الأمة بصفة عامة، وهذا ما دفع بولاة الأمور من سلف هذه الأمة إلى الاهتمام بالشعر والشعراء ـ والشعر أوسع أصناف الأدب انتشاراً عندهم ـ فأشادوا بالشعر الذي يبني شخصية الأمة، ويرقى بفكرها وثقافاتها وأخلاقها، وأظهروا معارضتهم ـ التي تصل إلى حد

obeikandl.com

العقاب أحياناً ـ للشعر الذي يسهم في هدم شخصية الأمة ويهبط بفكرها وثقافتها وأخلاقها.

وقد نشأت في زماننا هذا مذاهب أدبية تعتمد على أفكار وعقائد، وتستخدم «تأثير الأدب» لنشر هذه العقائد وتلك الأفكار، وتأثر بهذه المذاهب كثير من أدباء أمتنا الإسلامية، مما كان له دور خطير في مسخ بعض معالم شخصية هذه الأمة، وفي نشر كثير من المفهومات الخاطئة عن علاقة الأدب بالدين، فشاعت بذلك «علمانية الأدب» التي فتحت باب التمرُّد على مصراعيه أمام الشعراء والكتاب بحجة حرية الأديب التي لا تتحقق ـ في رأيهم ـ إلا بتخلّصه من سيطرة الدين مستدلين ببعض المقولات الواردة عن بعض سلف هذه الأمة أمثال الأصمعي والجرجاني في وساطته والصولي في أخباره، وغيرهم مما سنعرضه في مكانه من هذه الدراسة ـ بإذن الله ـ .

فكان لابد ـ إزاء هذه الحالة ـ أن يتناول النقد الإسلامي قضية علاقة الأدب بشخصية الأمة بالدراسة العلمية الجادة التي تربط بين الأدب الناضج القوي والدين ربطاً علمياً مبنياً على الدراسة والبحث البعيدين عن التعسُّف والادعاء، وهو ما نحاول أن نلمسه ـ قدر الإمكان ـ في هذا البحث المتواضع.

obeikandl.com

٤ - موقف الإسلام من الأدب:

أولاً: القرآن:

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾[1].

هذه الآية الكريمة نزلت ـ كما يقول ابن كثير رحمه الله في تفسيره ـ: خطاباً لمن زعم من المشركين أن ما جاء به الرسول ﷺ ليس بحق وأنه شيء افتعله من تلقاء نفسه أو تلقَّاه من الجن... ويَرِدُ في هذا الأمر حديثٌ رواه البخاري أن عروة بن الزبير قال: «قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: سأل ناس النبي ﷺ عن الكهّان فقال: إنهم ليسوا بشيء، قالوا: يا رسول الله ، فإنهم يحدثون بالشيء يكون حقّاً؟، فقال النبي ﷺ: تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنّي فيقرقرها في أذن وليِّه كقرقرة الدَّجاج فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة»[2].

---

(١) الشعراء، الآيات: ٢٢١ ـ ٢٢٧.

(٢) تفسير ابن كثير (٣٥٢/٣)، دار المعرفة ١٣٨٨هـ.

obeikandl.com

أما ما ورد عن الشعراء في هذه الروايات فقد اتفقت فيه آراء المفسرين، وسنكتفي منها بإيراد ما ورد في تفسير ابن كثير والطبري؛ لأنهما قد فصَّلا في هذا الجانب، وما ورد عند غيرهما لا يعدو أن يكون نقلاً منهما، أو شرحاً لما ذكراه.

١ ـ أورد ابن كثير في تفسيره عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في معنى قوله تعالى: ﴿**والشعراء يتَّبعهم الغاوون**﴾ قولَه: يعني الكفار يتبعهم ضُلاّل الإنس والجن، وكذا قال مجاهد.. وقال عكرمة: كان الشاعران يتهاجيان فينتصر لهذا فئامٌ من الناس ولهذا فئام من الناس فأنزل الله الآية.

كما أورد في معنى قوله تعالى: ﴿**في كل وادٍ يَهيمون**﴾ ما قاله علي بن أبي طلحة منقولاً عن ابن عباس أيضًا، من أن معناها: «في كل لغو يخوضون»، وروى الضحاك عن ابن عباس أيضاً أن معناه: «في كل فن من الكلام»، وهو ما ورد عن مجاهد أيضاً.

وقد أكَّد الحسن البصري فيما رواه عنه ابن كثير هذا المعنى مع زيادة تقربه إلى الأذهان حيث قال: قد والله رأينا أوديتهم التي يخوضون فيها .. مرّة في شتيمة فلان ومرَّة في مديحة فلان.

وأكد هذا المعنى قتادة حيث قال: الشاعر يمدح قوماً بالباطل ويذم قوماً بالباطل.

وقد روى العوفيُّ عن ابن عباس: أنه كان رجلان على عهد رسول الله ﷺ أحدهما من الأنصار والآخر من قوم آخرين وأنهما تهاجيا فكان مع كل واحد منهما غُواةٌ من قومه وهم السفهاء فنزلت: ﴿**والشعراء...**﴾ الآية.

وأورد ابن كثير عن ابن عباس في معنى قوله تعالى: ﴿**يقولون ما لا يفعلون**﴾أي : أنَّ أكثر قولهم يكذبون فيه.. وأورد قصة النعمان بن عديّ بن نَضْلَة عامل عمر على ميسان بالبصرة تأكيدًا لهذا المعنى[1].

ثم أورد ابن كثير في معنى قوله تعالى: ﴿ **إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...**﴾ ما روي عن أبي الحسن سالم البرَّاد بن عبد الله مولى تميم الداري حيث قال: لما نزلت: (**والشعراء**...) جاء حسان بن ثابت وعبدالله بن رواحة، وكعب بن مالك إلى رسول الله ﷺ وهم يبكون، قالوا: قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء، فتلا النبي عليه الصلاة والسلام: ﴿**إِلاَّ الَّذِينَ**

(١) راجع قصة النعمان بن عديّ في كتاب «الإصابة» لابن حجر العسقلاني (٤٤٧/٦)، دار نهضة مصر. بتحقيق: علي محمد البجاوي.

obeikandl.com

آمَنُوا ﴾ قال: أنتم ﴿وذكروا الله كثيراً﴾ و﴿وانتصروا من بعد ما ظلموا﴾ قال: أنتم..».

وقد أورد ابن كثير ـ رحمه الله ـ بعد هذه النقول كلاماً علَّق به على ما رواه سابقاً متوقفاً عند ما روي عن سبب نزول الاستثناء في الآية فقال: «ولا شك أنه استثناء ولكنَّ هذه السورة مكية، فكيف يكون سبب نزول هذه الآيات شعراء الأنصار؟ وفي ذلك نظر، ولم يتقدم إلا مرسلات لا يُعتمد عليها، والله أعلم، ولكنَّ هذا الاستثناء يدخل فيه شعراء الأنصار وغيرهم، حتى يدخل فيه من كان متلبِّساً من شعراء الجاهلية بذمِّ الإسلام وأهله، ثم تاب وأناب ورجع وأقلع وعمل صالحاً وذكر الله كثيراً في مقابلة ما تقدم من الكلام السيّئ، فإنَّ الحسنات يُذْهبن السيئات، وامتدح الإسلام وأهلَه في مقابلة ما كان يذمّه، كما قال عبد الله بن الزبعرى حين أسلم:

يا رسول المليك إن لساني ... راتق ما فتقتُ إذْ أنا بُورُ
إذْ أُجاري الشيطان في سنن ... الغيّ، ومَنْ مال ميله مثبورُ

وكذلك أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب كان من أشدّ الناس عداوة للنبي ﷺ وهو ابن عمه وأكثرهم له هجواً، فلما أسلم لم يكن أحد أحبَّ إليه من رسول الله ﷺ، وكان

obeikandl.com

يمدح رسول الله عليه الصلاة والسلام بعدما كان يهجوه ويتولاَّه بعدما كان قد عاداه»[1].

ثم أورد ابن كثير ما قيل في معنى قوله تعالى: ﴿**إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً**﴾ قيل: معناه ذكروا الله كثيرًا في كلامهم، وقيل في شعرهم، وكلاهما صحيح، أما قوله تعالى: ﴿**وانتصروا من بعد ما ظلموا**﴾ فقد ذكر ابن كثير أن ابن عباس قال في معناها: يردّون على الكفار الذين كانوا يهجون به المؤمنين، وكذلك قال مجاهد وقتادة، ثم ذكر ابن كثير في معنى قوله تعالى: ﴿**وسيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلبٍ ينقلبون**﴾ يعني من الشعراء وغيرهم.

٢ ـ أورد الطبري في تفسيره[2] أن معنى الآية هو:

---

(١) تفسير ابن كثير، (٣٥٥/٣)، ترد الإشارة في المصحف إلى أن سورة الشعراء مكية إلا آية ١٩٧ ومن آية ٢٢٤ إلى آخر السورة فمدنية، ويشير السيوطي في «لباب النقول» إلى أن سبب نزول آخر سورة الشعراء هم شعراء الأنصار، حسان وابن رواحة وكعب بن مالك، وانظر أحكام القرآن لابن عربي جـ : ٣ ص : ١٤٤٠ تحقيق على محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت.

وبناءً على هذا يضعف اعتراض ابن كثير على أن الآية نزلت في شعراء الأنصار، مادامت آية الشعراء قد نزلت في المدينة، بخلاف بقيّة آيات السورة حيث نزلت بمكة.

(٢) تفسير الطبري (٧٨/١٩ وما بعدها)، دار المعرفة، ط ٣، ١٣٩٨هـ.

obeikandl.com

والشعراء يتبعهم أهل الغي لا أهل الرشاد والهدى، ثم قال: واختلف أهل التأويل في الذين وُصفوا بالغي فقال بعضهم: هم رواة الشعر، وقال آخرون هم: الشياطين، وقيل هم: عصاة الجن، وقيل هم: السفهاء، وقيل هم: المشركون.

وقد أكد الطبري المعنى الذي أشار إليه ابن كثير من أن الشعراء الذين يتبعهم الغاوون هم المشركون المحاربون لله ولرسوله عليه الصلاة والسلام، « فأورد كلاماً عن عبدالرحمن ابن زيد ـ رضي الله عنهما ـ أنَّ رجلاً قال لأبيه : يا أبا أسامة، رأيتَ قول الله تعالى: ﴿ **والشعراء..** ﴾ فقال له زيد: إنما هذا لشعراء المشركين وليس لشعراء المؤمنين، ألا ترى أنه يقول: ﴿ **إلا الذين آمنوا** ﴾.

ثم ذكر الطبري أن الاستثناء نزل في شعراء الرسول ﷺ ثم هو لكل من كان بالصفة التي وصفهم الله بها.

هذا مجمل ما ورد في تفسير هذه الآيات الكريمات من سورة الشعراء .. ويتضح المعنى للمتأمل حيث يثبت لنا أن الشعراء صنفان: صنفٌ على منهج الضلالة، وقد قرَّر الله في شأنه ما قرَّر، ووضع لهم من الصفات ما وضع، وصنف على منهج الهدى والإيمان، وقد استثناه الله في كتابه استثناءً

واضحاً يدلُّ على أنهم يُمدحون ويُحمدون بصفات تناقض تلك الصفات التي حملها الشعراء الضالُّون المنحرفون.

ثانياً : السنَّة المطهّرة:

١ ـ روى أبو داود في سننه عن عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فجعل يتكلَّم بكلام، فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ من البيان لسحراً، وإن من الشعر حكَماً»[(١)].

٢ ـ روى البخاري عن أُبيّ بن كعب ـ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ من الشعر حكمة»[(٢)].

٣ ـ روى البخاري عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «أصدقُ كلمة قالها الشاعر كلمةُ لبيد، ألا كل شيءٍ ما خلا اللهَ باطلُ، وكاد أميَّة بن أبي الصلت أنْ يُسلم»[(٣)].

---

(١) سنن أبي داود، (٥٠١١) كتاب الأدب، باب: ما جاء في الشعر، دار الحديث، ط ١، ١٣٩٤هـ.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٥٣٦/١٠) كتاب الأدب، باب: ما يجوز من الشعر.

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٥٣٧/١٠) كتاب الأدب، باب: ما يجوز من الشعر.

obeikandl.com

٤ ـ روى البخاري عن أبي نُعيم عن سُفيان بن الأسود بن قيس قال: سمعت جندياً يقول: بينما النبي ﷺ يمشي إذْ أصابه حجرٌ فعثر، فدَميَتْ إصبَعُه فقال:

هل أنت إلا إصبَعٌ دَميتِ وفي سبيل الله ما لقيتِ[1]

ثالثاً: أقوال السلف:

١ ـ أورد ابن كثير في سيرته أنَّ رسول الله ﷺ كان يطلب من أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ أن ينشده بعضَ ما يحفظ من الشعر، كما حدث عندما دخل كعب بن زهير على رسول الله عليه الصلاة والسلام تائباً وقال له: ومن أنت؟ قال: كعب بن زهير، قال: الذي يقول: ثم التفت رسول الله ﷺ فقال: كيف قال يا أبابكر، فأنشده أبوبكر:

سقاك بها المأمون كأساً رويّةً وأنْهلك المأمور منها وعلَّكا

قال كعب: يا رسول الله، ما قلت هكذا، قال: فكيف قلت؟ قال: قلت:

سقاك بها المأمون كأساً روية وأنهلك المأمون منها وعلَّكا

فقال رسول الله ﷺ: «مأمون والله»[2].

---

(١) المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

(٢) السيرة النبوية لابن كثير (٧٠٦/٣)، دار المعرفة، ١٣٩٣هـ.

obeikandl.com

وقد ذكر ابن كثير هذه القصة بتمامها ثم علَّق عليها بقوله:

وهذا من الأمور المشهورة جداً، ولكن لم أر ذلك في شيء من هذه الكتب المشهورة بإسناد أرتضيه، والله أعلم[1].

٢ ـ روى ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن عمر قال له: أنشدني لشاعر الشعراء، فقلت مَنْ هو يا أمير المؤمنين؟ قال: زهير، أليس هو الذي يقول:

إذا ابتدرت قيس بن غيلانَ غاية من المجد من يسبق إليها يُسوَّد

فأنشدته حتى برق الفجر، فقال: إيهاً الآن اقرأ، قلت: وما أقرأ؟ قال: ﴿**إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ**﴾[2].

وقد ورد هذا الخبر برواية أخرى: أن عمر قال لابن عباس ألا تنشدني لأشعر الشعراء، فقال له: ومَن أشعر الشعراء؟ قال عمر: زهير. قال ابن عباس: لمَ صيَّرْتَه أشعر الشعراء، قال: لأنه لا يعاظل بين الكلامين، ولا يتبع وحشيَّ الكلام، ولا يمدح رجلاً إلا بما فيه[3].

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير (٣/٧٠٧).

(٢) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي، ص ١٨٦، مكتبة الخانجي، ط ١، ١٣٤٢هـ .

(٣) جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام لأبي زيد القرشي (١/١٨٨)، الناشر لجنة البحوث والتأليف بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠١هـ، وانظر موازنة الآمدي ص : ٢٥٨، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المسيرة، بيروت.

obeikandl.com

٣ ـ ورد عن عثمان بن عفان، وعن علي بن أبي طالب وعائشة ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ، وعن غيرهم من الصحابة والتابعين وعلماء السلف ما يؤكد اهتمامهم بالشعر الحسن، ورفضهم للشعر القبيح الذي يُسيىء إلى أخلاق الناس وأعراضهم، وإن الأخبار التي وردت في هذا الباب من الكثرة بمكان، مما لا يجعلنا قادرين على نقلها هنا؛ لأن ذلك سيخرجنا مما نحن بصدده، وهي في مظانّها ومراجعها من كتب السيرة والأدب.

ولكن يحسن بنا في هذا المقام أن نستخلص الفوائد التي تضمّنتها الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وغيرها مما ورد عن الصحابة، وسلفنا الصالح في قضية «الأدب والشعر» .

*****

obeikandl.com

٥ ـ فوائد عامة:

١ ـ الإسلام أعطى الأدب جانباً من الاهتمام بدليل ما ورد في شأن الشعراء من آيات قرآنية وأحاديث نبوية، وما عُرف عن الرسول عليه الصلاة والسلام من اهتمام بالشعر واستنشاد لحسَنِه وإشادة به، ومن رفضٍ لقبيحه وذمٍّ له، ونحن نعلم أنّ الشعر في ذلك الزمن كان أهمّ أصناف الأدب، وأكثرها تأثيرًا في نفوس العرب.

٢ ـ الأدب صنفان: أدب مقبول ممدوح، وآخر مرفوض مذموم، وهذا أمر عام في الكلام، ويؤكدها ما ورد في «الأدب المفرد» مما أخرجه البخاري عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ كانت تقول: «الشعر منه حسن ومنه قبيح، خذ الحسن ودع القبيح، ولقد رويت من شعر كعب بن مالك أشعارًا منها القصيدة فيها أربعون بيتاً»[(١)].

٣ ـ القاعدة المقرَّرة في هذا الأمر تفيد أن الأدب ـ والشعر صنف من أصنافه ـ مهم في حياة الناس، وأنهم يتفاعلون معه، ويتأثرون به، وأنَّ الإسلام قد رسم له منهجاً واضحاً سليماً من سار عليه من الشعراء فقد سلك طريق

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٥٣٩/١٠).

obeikandl.com

الرشد، وحمى نفسه من غضب الله، ولا ينقض هذه القاعدة الثابتة بالقرآن والسنة ما نراه من كثرة الشعراء المنحرفين عن طريق الخير، على اختلاف مستوياتهم في هذا الانحراف؛ فإنّ ذلك بسبب ميل النفوس إلى الهوى، وقد قرر ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿ **وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ** ﴾[1] ، إذْ يبقى بعد ذلك كله التصنيف القرآني للشعر ثابتاً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ويبقى الطريق الإسلامي في الأدب واضحاً أمام السالكين.

ولذلك فإنه بناءً على هذه القاعدة لابد من إبراز ملامح المنهج الأدبي الإسلامي الذي يجعل من الأدب وسيلة بناء لا وسيلة هدم.

٤ ـ الحكم الإسلامي في هذه القضية حكمٌ عامٌ لا يختص بشخص معيّن، ولا بمكان وزمان معيَّنين، بل هو حكم صالح لكل زمان ومكان..

وقد رأينا كيف أكد ابن كثير أن معنى الآيات الخاصة بالشعراء معنىً عام يصلح لكل زمان ومكان، وهو ما أكَّده الطبريُّ ـ كما سبق ـ حيث قال معلّقاً على الاستثناء في الآية

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٣.

obeikandl.com

الكريمة ﴿**إلا الذين آمنوا..**﴾ إنه نزل في شعراء الرسول عليه الصلاة والسلام، ثم هو لكل من كان بالصفة التي وصفه اللهُ بها، وهذا المعنى ينسجم مع رسالة الإسلام الشاملة الخاتمة للرسالات السماوية، ومع حقيقة إكمال الدين التي تضمنتها الآية الكريمة ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا**﴾[1].

*****

(١) سورة المائدة، الآية : ٣.

obeikandl.com